

# نظرية الاستقلال القومي

وتطبيقها على التاريخ المصري

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أشارت إحدى الصحف الانكليزية الكبرى أثناء حديثها أخيراً عن الشئون المصرية ، الى نظرية تاريخية قديمة ترددها السنة الأستعمار في كل مناسبة ، وهي أن مصر لم تكن مستقلة في أى عصر من عصور تاريخها

وترى السنة الأستعمار بترويج هذه النظرية الى غرض واضح ، وهو أن مصر التي لم تتمتع خلال هذه الآماد الطويلة من تاريخها بنعمة الأستقلال والحرية ، ليست جديرة بأن تتخذ مكانها بين الأمم المستقلة ، وأن حكم التاريخ يقضى عليها بأن تكون دائماً مسودة لغيرها من الأمم القوية ؛ فلماذا لا تكون انكلترا هي الدولة التي تنفذ على مصر حكم التاريخ الخالد ؟ ولماذا تحاول مصر أن تقالب قدرها ، وطبيعتها كأمة استعبدت مدى الأحقاب تنافي طابع الحرية والأستقلال ؟

وهذه نظرية باطلة بلا ريب ، يهدمها حكم التاريخ النزيه الحق ؛ ولكنها أيضاً نظرية خطيرة ؛ وتروجها في العالم المتمدن يضر بالقضية المصرية ضرراً بليغاً ، ويسىء الى تراث مصر التاريخي ، وإلى سمعتها كأمة ناهضة تطمح الى تحقيق استقلالها . ومن الأسف أن هذا القول الباطل في تصور التاريخ المصري ،

رذيلة جلب فضيلة ، وبهذا التأويل تتوجه الآية الكريمة جهة فلسفية عالية لا يأتى البيان ولا العلم ولا الفلسفة بأوجز ولا أكمل من لفظها ؛ ويتوجه الصيام على أنه شريعة اجتماعية انسانية عامة ، يتق بها الاجتماع شرور نفسه ، ولن يتهذب العالم إلا إذا كان له مع القوانين النافذة هذا القانون العام الذي اسمه الصوم ومعناه « قانون البطن » . . . . .

ألا ما أعظمتك يا شهر رمضان ! لو عرفك العالم حق معرفتك لسماك « مدرسة الثلاثين يوماً »

طنطا

محمد عبد الله عنان

يروج له في مصر ذاتها ، ويتأثر به كثير من يطنى على أذهانهم وعواطفهم سيل الثقافة الأجنبية ، ولا يعرفون شيئاً من تاريخ بلادهم . بل من الأسف أن هذه النظرية الأستعمارية الخطرة ، ما زالت تمثل في تعليم التاريخ في بلادنا وفي معاهدنا ، لأن برامج التعليم الرسمية ما زالت بعيدة عن التحرر من أغلال المؤثرات الأجنبية ، بعيدة عن رعاية النواحي القومية

ولهذا ترى أن نعرض بهذه المناسبة الى بحث هذه النظرية لرى حظها من التطبيق على عصور التاريخ المصري . وأول ما يلفت النظر ذلك التصوير الخاطيء الذي يصور به نقاب العصور والدول على مصر ؛ فصر حسبها تقول النظرية ، قد غادرت منذ أيام الفراعنة عهد الحريات القومية إلى الأبد ، وتماقت عليها الدول الغالبة تباعاً ، فافتتحها الفرس ، ثم اليونان ، ثم الرومان ، ثم العرب في سلسلة متصلة من السيادة الأجنبية ، وتماقت عليها بعد ذلك دول اسلامية أجنبية من الشرق والغرب ودول الممالك المختلفة حتى كان الفتح التركي ، تاستمرت تحت السيادة التركية حتى كان الفتح الفرنسي و ظهور محمد علي ؛ ولم يطل أمد استقلالها عندئذ ، حتى غادت فوقعت في قبضة الانكليز ، واتصلت بذلك حلقات استعبادها الطويل

وتصور أدوار التاريخ المصري على هذا النحو تصوير خاطيء من الوجهة العلمية ، وتصوير مغرض وضعه الكتاب الغربيون منذ أوائل القرن الماضي — وهم أول من كتب عن تاريخ مصر في العصر الحديث — ومعظمهم متأثر بنزعة الغرب الى استعمار الشرق ، وتبرير هذه النزعة بالعوامل التاريخية والاقتصادية ونشر المدنية الحديثة . وقد كان لدعوات أثر كبير في معظم ما كتب عن مصر ؛ بل لقد تأثر بها الكتاب المصريون أنفسهم ، وتأثرت بها دراسة التاريخ في مصر وبرامج الرسمية ؛ وأضحى واجياً علينا أن نحارب هذه النظرية الخطرة في كل مناسبة ، وأن نبين خطأها من الناحية العلمية

لقد توالى على مصر حقاً عصور طويلة من الغلبة والاستعباد ، ولكنها تحتمت أيضاً بمصور طويلة من الحرية والأستقلال والسؤدد القوي . وقد قطعت مصر أيام الفراعنة آماداً بعيدة في ظل الحريات القومية والأستقلال اللطيق ، وكانت سيدة امبراطورية مصرية تمتد من قلب السودان الى الشام ؛ وكان

مسودة في ظل هذه الدول؟ وهل كانت حصر الفاطمية، والأيوبية، ومصر في عهد أسر أمانيك المختلفة حتى الفتح العناني، أمة مستقلة أم كانت تزوج تحت النير الأجنبي؟ وجوابنا أنت مصر كانت في تلك العصور أمة مستقلة تتمتع بكامل حرياتها القومية، وكانت أمة سيده لا مسودة، تسير في ميدان الحرب والسلام من ظفر الى ظفر. أما هذه الدول الأجنبية المسلمة التي كانت تنبؤاً للسلطان والحكم، فلم تكن أكثر من أسر نازحة أو مستقرة تبوأت الرياسة لأصولها الملوكية أو لؤهلانها الخاصة؛ ولم تكن تتولى هذه الرياسة لحسابها الخاص، وإنما كانت تتولاها لحساب الأمة المصرية، وتعمل باسمها وبأيديها، فكانت تغدو بمد استقرارها أسراً مصرية خالصة ليس لها مركز للرياسة غير مصر، وليست لها أمة أخرى تمثلها غير مصر؛ وحتى الدولة الفاطمية التي دخلت مصر غازية، لم تشذ بعد استقرارها عن هذه القاعدة، فكانت مصر هي مركز الدولة الفاطمية ومستقرها، وغدت الخلافة الفاطمية مصرية بعد أن كانت مغربية؛ ومنذ الدولة الأيوبية حتى الفتح العناني تظهر الأسر السلطانية في مصر ذاتها، بين القادة والأمراء النابهين؛ ولم تكن تلك العروش والأسر التي قادت الأمة المصرية منذ الدولة الفاطمية الى الظفر في ميادين الحرب، والى مراتب العظمة والبهاء في ميادين السلام والحضارة، سوى عروش وأسرة مصرية أو متمصرة، تعمل جميعاً لمصر وباسمها، ولم تكن تلك الجيوش الباسلة التي لبثت أكثر من قرنين تلتقي ضربات الحملات الصليبية في مصر والشام، وتبث أعمالها وانتصاراتها الروع في أم القرب، سوى جيوش مصرية تقودها تلك الأسر التي ارتضتها لزعامتها؛ على أن تلك الأسر الملوكية ذاتها لم تلبث غير بعيد أن فقدت زعامتها السياسية، وأصبحت خاضعة في التعيين والمزل لرأى الأمة المصرية ممثلة في زعامتها الدينية والفكرية؛ ولأنه لمن التسف أن نخرج من حظيرة الأمة المصرية أسراً نهبت فيها، وتولت زعامتها بحكم ترانها الوروث آماداً، وعملت لمصر ولم تعمل لسواها، ولم يبق لها من صبغتها الأجنبية سوى ذكريات النشأ والماضى

كانت مصر الاسلامية إذاً، مذ تقلص عنها ظل الخلافة، أمة مستقلة، وكانت مصر الاسلامية أمة مستقلة حين غزاها الترك العثمانيون وحطموا بها صرح حضارة اسلامية زاهرة

لها في تلك العصور من القوة والمظمة والمدنية الزاهرة، ما لم تتمتع به أية أمة من الأمم الغابرة. وإذا كانت مصر قد سقطت في عصور الانحلال فريسة النير الأجنبي، واستمرت تزوج نحو الف وخمسة عشر عام تحت نير الهكسوس والفرمر، واليونان والرومان، فقد تمتعت بحرياتها واستقلالها قبل ذلك آلاف السنين ويبدو خطأ نظرية الكتاب الغربيين بنوع خاص في الحكم على تاريخ مصر منذ الفتح الاسلامي، فهم لا يكتفون باعتبار هذا الفتح بدء عصر جديد من الاستعباد بالنسبة لمصر، بل يرون أن مصر كانت طوال الدول الاسلامية التي تعاقبت عليها، أمة مسودة خاضعة لنير الحكم الأجنبي، ويصتبرون هذه الدول كلها، دولا غازية سيده؛ وهو خطأ كبير في فهم الحقائق التاريخية وفي تصويرها. ويجب أن نذكر أولاً أن الأمة المصرية لبثت أيام الفرس واليونان والرومان تحتفظ بطابعها الفرعوني القديم، وأن هذه الدول الغازية لم تستطع أن تجعل من الأمة المصرية المغلوبة وحدة من وحدانها الاجتماعية، وإن كانت مصر قد تأثرت بلا ريب بنفوذ هذه الدول وحضاراتها؛ وعلى هذا فقد كانت مصر في هذه العصور أمة مغلوبة حقاً، ولكن تحتفظ باستقلالها كوحدة اجتماعية. بل لقد استطاعت مصر أن تحتفظ بهذا الاستقلال الاجتماعي، حتى بعد أن أرغبت على اعتناق النصرانية، ولم تندمج قط في الامبراطورية الرومانية، كما اندمجت أم وشعوب أخرى. ولكن الأمة المصرية شهدت منذ الفتح الاسلامي تطوراً جوهرياً في تكوينها الاجتماعي؛ فقد استطاع العرب في أقل من قرن أن ينشئوا منها أمة اسلامية، وأن يجعلوا منها وحدة اجتماعية من وحدات الامبراطورية الاسلامية الكبرى؛ واندمج الغالب والمغلوب في أمة جديدة موحدة تدين بالاسلام وشرائعه، وتتكلم بلفته، وتضطر بمروحه؛ ولم يأت القرن الثالث من الهجرة حتى أضحى التميز عيباً بين السلالة العربية النازحة، وبين السلالة المصرية المسلمة. وكانت مصر حتى منتصف القرن الثالث ولاية من ولايات الخلافة؛ ولكنها استطاعت من ذلك الحين أن تنزع الى الاستقلال في ظل الدولة الاسلامية الكبرى، على يد بعض الحكام والقادة الخارجين على الخلافة؛ وبدأت من ذلك الحين سلسلة الدول الاسلامية المستقلة في مصر

وهنا تعرض النقطة الجوهرية. هل كانت مصر سيده أم

الأجنبي ؟ ونستطيع أن نلاحظ بهذه المناسبة أيضاً أن أدولف هتلر زعيم ألمانيا وسيد مصارها اليوم ، إنما هو أجنبي نمسوى المولد والنشأة ؛ ومن المعروف أن الأسرة التي تتولى عرش انكلترا اليوم ، إنما ترجع إلى أصل ألماني ، وأن معظم الأسر الملوكية الأوربية ترجع إلى أصول أجنبية ، وإذا كانت هذه الأسر اليوم لا تتمتع بمثل ما كانت تتمتع به أسر السلاطين من السلطة المطلقة ، فذلك لأن روح العصر قد تطورت ، وعاضدت روح العصور الوسطى ، وانتهت الأمم بأن جلت من العروش رمزاً قومياً ليس غير

وإذا كانت مصر قد رزحت تحت نير الحكم الأجنبي في بعض أدوار تاريخها ، فهي لم تشذ في ذلك عن معظم الأمم القارية التي تتمتع اليوم بكامل حرياتها واستقلالها ، ولنضرب لذلك مثلاً بأمة عظيمة هي إيطاليا ، التي لم تتمتع باستقلالها إلا منذ أواخر القرن الماضي ، والتي لبثت طوال العصور الوسطى والحديثة مسرحاً لمطامع الدول والغروش الأجنبية ، ولم تستقل فيها سوى البندقية وبعض الجمهوريات الصغيرة . ولنضرب مثلاً آخر باليونان ، وقديمت زهاء ألفي عام رزح تحت نير الحكم الأجنبي ، منذ الرومان فالبنادقة فالترك ، ولم يتل حرياتها القومية إلا منذ قرن فقط ، ولم تنلها إلا بمؤازرة أوروبا النصرانية ؛ وهناك غير إيطاليا واليونان ؛ هنالك هولندة والبلجيك ، وهنالك بولونيا التي لبثت ثلاثمائة عام ممزقة بين دول ثلاث من جيرانها ، وهنالك رومانيا والمجر ، وتشيكوسلوفاكيا ، فهذه كلها أمم حديثة في الاستقلال والحريات القومية ، ولم يقل انسان إنهما من أجل ذلك تستحق أن يسلب استقلالها وأن تسكن إلى نير التغاب إلى الأبد والغلامنة أننا كلما تأملنا هذه النظرية الاستعمارية في تصوير أدوار التاريخ المصري ، كلما بدأ بطلانها وتصفها وما يحفزها من الغرض والهوى

فليستعرض الشباب المصري تاريخ بلاده. كلما طرقت آذانه هذه النعمة النادرة. فتاريخ مصر ، كتاريخ الأمم العظيمة ، حافل بمواطن الفخار والمجد ، وعصور الحرية والاستقلال ما

محمد عبد الله عثمان  
الحامى

تكسدت على ممر العصور ؛ ولقد كانت الفتح العثماني عملاً هجيباً ، كما كانت قنوح القبائل البربرية لزومة وأقطار الدولة الرومانية ؛ ولم يكن عملاً إنشائياً ، كما كان الفتح الاسلامي ؛ على أن مصر استطاعت في ظل أولئك الوندال أن تسترد غير بعيد كثيراً من مظاهرها استقلالها المحلي ؛ ولم يأت القرن الثامن عشر حتى أصبحت السيادة العثمانية على مصر سيادة اسمية ، كل ما يهيم الحكام الترك منها أن يستندوا بعض الموارد والأموال من الشعب المحكوم

ولا حاجة بنا للقول بأن مصر استردت كامل استقلالها في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وإن كانت قد عادت فانضوت تحت لواء أسرة جديدة

\*\*\*

بما تقدم يبدو تصوير النظرية القارية لمصور التاريخ المصري بأنها سيادات أجنبية متعاقبة ، واستبعاد متصل للأمة المصرية ، تصفاً لا يؤيده منطق الحقائق التاريخية ؛ ولو طبقنا هذه النظرية الخاطئة على التاريخ القوي لبعض الأمم الأوربية العريقة في الاستقلال والحرية لانتهينا في شأنها إلى مثل ما ينتهي الكتاب القاريون في شأن مصر . ولنتخذ فرنسا مثلاً ، فقد رزحت إليها عقب انهيار الدولة الرومانية قبائل غازية من الشمال ، وأقام بها « البروفنجية » على يد زعيمهم كلوفيس ، منذ القرن السادس مملكة جديدة هي مملكة الفرنج ؛ ولما انحلت أسرة الميروفنجية ، قامت بأمر الفرنج الأسرة « الكارلية » القوية ، وانترعت عرش الفرنج ، واستمرت في زعامة فرنسا حتى أواخر القرن التاسع ، وتبع فيها أميران من أعظم أمراء النصرانية هما كارل مارتل الذي رد العرب في بلاط الشهداء (سنة ٧٣٢) وكارل الأكبر (شارلمان) أعظم ملوك العرب في عصره ؛ وكان الميروفنجية والكارلية كلاهما من القبائل الألمانية الشمالية ، فهل نعتبر أن فرنسا كانت في هذه العصور أمة مستعبدة رزح تحت حكم النير الأجنبي ، لأن أسراً أجنبية رزحت إليها ، واستقرت بها ، وتولت زعامتها ، وعملت لحسابها وباسمها ؟ وهل نعتبر نابليون (وهو إيطالي الجنس والأصل) قائماً لفرنسا مقتصباً لعرشها وزعامتها ، ونعتبر أن فرنسا كانت في عصره خاضعة للحكم